حمام مثير للإعجاب من العصر الأيوبي وكنيسة سريانية في تل تنينير في الجزيرة السورية

من الحفريات في الموقع

خليل إقطيني

كاتب وصحفي بمؤسسة الوحدة للصحافة والنشر

مدير مكتب صحيفة تشرين بالحسكة

الجمهورية العربية السورية

aya2006@scs-net.org

إنها مجرد قرية صغيرة ، تضم عدداً من البيوت الطينية المتناثرة هنا وهناك ، بناها الفلاحون حول تل ترابي كبير ذي منحدر جنوبي منبسط ، يقع على بعد ميل جنوب شرق مدينة الحسكة على الضفة الشرقية لنهر الخابور في الجزيرة السورية . (٧٠٠كم شمال شرق العاصمة دمشق).

هكذا تبدو قرية تنينير لناظرها للوهلة الأولى ، لكن ما إن نقترب من ذلك التل ونرى الحفريات التي أجريت فيه ، حتى نكتشف أن تنينير ليست قرية عادية ، بل إنها قرية ذات تاريخ عريق ، فقد أشارت الدلائل الأثرية إلى أنها كانت مأهولة منذ سنة ٢٥٠٠ ق.م ، أي إن هذا الموقع قديم كقدم دمشق وحلب وحماة ، نشأ وتطور واستمر حتى جاء الاجتياح المغولي على يد الملك تيمورلنك ، الذي دمّر قرية تنينير قبل ٦٠٠ عام ، واضعاً حداً لتاريخها الطويل وحضارتها العريقة .

هذه الحضارة التي تم اكتشافها من قبل بعثة أثرية أميركية ، تعمل برعاية وإشراف كلية سانت لويس الحكومية في مدينة سانت لويس التابعة لولاية ميسوري ، وبرئاسة د . مايكل فوللر.

أثر تاريخي فريد من نوعه

ومن خلال أعمال البحث والتنقيب التي قامت بها البعثة في قرية تنينير ، تم التوصل إلى العديد من المكتشفات الهامة ، التي أماطت اللثام عن جوانب عديدة من تاريخ منطقة الجزيرة بشكل خاص وتاريخ سورية بشكل عام ، وخلال مواسم التنقيب تمكنت البعثة من اكتشاف أثر تاريخي فريد من نوعه ، هو عبارة عن حمام مثير للإعجاب من حيث التصميم والتجهيز .

> "المكتشفات أكدت أنها مأهولة من سنة ٢٥٠٠ ق.م"

يقع هذا الحمام في الجزء الجنوبي من تل تنينير ، هذا الجزء الذي كان يضم أيضاً الحي الحكومي والتجاري من البلدة. وقد أكدت أعمال التنقيب التي أجريت أن أبنية هذا الجزء مشيدة من حجارة كبيرة وجدرانها مطلية بالجص ، غير أن أصحاب الحمام آثروا دفع المزيد من التكاليف ، لقاء بناء جدرانه من الحجارة السوداء التي تسمى حجر البازلت ، والتي تم جلبها من سفوح جبل كوكب البركاني الواقع إلى الشرق من مدينة الحسكة .

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق هو لماذا استعمل سكان بلدة تنينير حجر البازلت عوضاً عن الأحجار الكلسية المتوافرة لديهم ؟! الجواب: لأن البازلت أحجار بركانية تمتص الحرارة ، وتبقى حارة لفترة أطول من الأحجار الكلسية ، ولهذا فان اختيارهم للبازلت في بناء الحمام ، هو اختيار موفق ويدل على وجود تقدم كبير في مجال الهندسة العمرانية في هذه المنطقة منذ أقدم العصور .

وبعد إزالة الأتربة والأوساخ من مجمع الحمام ، تبين أنه كان يحتوي على حجرة للثياب ، ومدخل له حاجز من أجل منع الأطفال الفضوليين من اختلاس النظر على الزبائن ، وداخل الحمام كانت هناك غرفتان مربعتان دافئتان ، وفسحة كبيرة تتسع لثلاثين أو أربعين شخصاً على الأقل ، والى جانب ذلك توجد أربعة غرف منفصلة جنوبي الغرفتين الدافئتين. تحتوي تلك الغرف على أحواض ماء مرتبة بشكل متناسق ، وقد بنيت أرضية النصف الغربي من الحمام ، بطريقة ممرات الهواء الساخن ، من أجل تدفئتها وهذا ما يعرف بتقنية الأرض الدافئة

- **الاستشهاد المرجعي بالتقرير:**

خليل اقطيني ، حمام مثير للإعجاب من العصر الأيوبي.- دورية كان التاريخية.- العدد الخامس ؛ سبتمبر ٢٠٠٩. ص ٧٧ - ٧٩.(www.historicalkan.co.nr)

التي تسمى التدفئة المركزية ، التي اقتبسها المهندسون العرب من الحمامات الرومانية .

أما ماء الحمام فقد كان يجلب من بئر كبير قطر فوهته ١.٦ م ، وقد تم إزالة الأتربة منه على عمق ثمانية أمتار ولم يتم الوصول إلى القعر بعد. إن حجم الحمام وامتداده المتناسق ومصدره الوفير من الماء ، يظهر بوضوح انه لم يكن حماماً لرجل فقير ، فحمام تل تنينير كان نداً لأي حمام نموذجي في دمشق أو حلب أو القاهرة خلال العصر الأيوبي .

آنية بيزنطية ورومانية وإسلامية

ولم تكن المكتشفات في تل تنينير مقتصرة على الحمام سالف الذكر ، رغم أنه من أهم المكتشفات ، وإذا تم التوصل إلى مكتشفات أخرى على قدر كبير من الأهمية تعود لعصور وحضارات مختلفة فقد دلت الحفريات على وجود أعداد كبيرة من الآنية البيزنطية والإسلامية ، وعلى وجود جدران منازل ، كما تم اكتشاف مصباح بقي سليماً تماماً يشير إلى انه كان يعمل على زيت الزيتون ، ويعود تاريخه إلى سنة ٥٠٠ م ، أي قبل عصر النبي محمد/ص/ بقرن تقريباً .

" الكشف عن جرار تستخدم لخزن ومزج الخمر تعود لحاكم تنينير الذي كان يتكلم اللغة الإغريقية "

وفي مكان عميق من الهضبة تم العثور على عدد من القطع المكسرة لآنية فخارية ، يعود تاريخها إلى ما قبل الشكل المعروف للآنية البيزنطية والرومانية ، كانت هذه الجرار تستخدم لخزن ومزج الخمر ، وتعود لحاكم تنينير الذي كان يتكلم اللغة الإغريقية ، وعاش في هذا الموقع منذ ٢٢٠٠ سنة مضت ، وهذا التاريخ هو العصر الذي تلا مباشرة غزوات الملك الإغريقي المشهور (الاسكندر الكبير) الذي ربما ترك في هذا الموقع احد حكامه الذين يتكلمون اللغة الإغريقية. وعندما قامت البعثة بالحفر تحت مستوى قبو الخمر اليوناني ، اكتشفت جدراناً تنتمي إلى حضارات قديمة جداً ، وأحد الاكتشافات المثيرة ، كان نقوشاً كتابية على حافة وعاء مكسور ، مكتوبة باللغة الآرامية التي تعتبر مثالاً قديماً جداً عن هذا النموذج في الكتابة ، ولاسيما أن اللغة الآرامية هي لغة سلفية للغة السريانية ، ويتراوح عمر هذه الكتابة بين 3900-3200 عام . كما تم اكتشاف شيء آخر من مخلفات هذا العصر القديم جداً ، هو قطعة حجرية منحوتة بحجم الإصبع في مشهد يمثل رجلاً يصطاد بالقوس والنشاب ثوراً مجنحاً ، بالإضافة إلى ختم أسطواني كان شائعاً جداً خلال عصور الملوك الآشوريين مثل آشور ناصر بال شلمنصر وتغلات بلاصر .

جرار فخارية

جرة الحب

ومن أهم قطع الآنية التي تم العثور عليها في طبقات العصر الإسلامي ما يسمى جرة الحب ، التي يبلغ ارتفاعها بقدر قامة رجل ، ومزخرفة بأشكال أسود ووجوه نساء وأجسام بشرية متناسقة ومنحوتة بدقة ، وقد جاءت تسمية حب من مخطوطة عربية عثر عليها مكتوبة على جرة مشابهه في العراق تقول (أنا حب وبداخلي ماء يشفي) ويمكن التعرف على تاريخ الجدران الأثرية والأواني التي وجدت في قمة تل تنينير بدقة تامة بواسطة حفنة من العملة البرونزية عثر عليها في الموقع ، وكل هذه القطع من فئة واحدة هي فئة خمس ليرات ، ولذلك لم يكن الناس يهدرون كثيراً من الوقت في البحث عن هذه العملات إذا ما سقطت من جيوبهم مصادفه ، تنتمي هذه العملة إلى الأمير قطب الدين محمد احد الأمراء الزنكيين ، وكانت عاصمة مدينة سنجار القديمة ، واللافت للنظر أن هذا الأمير وضع صورته على هذه العملة ، وهذا عمل مخالف للمعتقدات والتقاليد لإسلامية ، وقد حكم الأمير قطب الدين من سنة ٥٩٤ وحتى ٦١٦ هجرية ، أي من 1198وحتى ١٢١٦ ميلادية كما تم العثور على عملة نحاسية أخرى سكّت في سنجار تعود للملك الأشرف موسى ((٢١٠-١٢٢٠)) م .

" المكتشفات الاثرية تؤكد أهمية تل تنينير كموقع استراتيجي على نهر الخابور "

خان وحوانيت وجامع

ومن بين مجموعه الأبنية المكتشفة في منطقتي التنقيب الرابعة والخامسة ، خان وستة حوانيت ((فرن ودكان حداد ومدبغة)) وحمام صغير ، وعلى طول الاتجاه الشمالي الشرقي للخان تم اكتشاف جامع ، وكان جدار الخان الخارجي بمثابة جدار القبلة في هذا الجامع ، وقد حفرت أربع كوات صغيرة في هذا الجدار تحمل ألواحاً مطلية ومزخرفة بنقوش نافرة من القرآن الكريم مكتوبة بالخط الكوفي ، بالإضافة لذلك كانت هناك كوة مركزية كبيرة تستخدم كمحراب ، كما عثر على كوب جميل مزين ومطلي بالمينا وبأحرف عربية مذهبة ، وهذا دليل على المستوى الرفيع للفن السوري إبان القرن الثالث عشر ، ويشير أسلوب صناعة هذا الكوب وطريقة نقش الحروف عليه ، إلى انه صنع إما في الرقة أو حلب ، أما الأجزاء المتبقية من هذا الكوب منقولة ((المجد والإجلال إلى سيدنا السلطان وليعم السلام على سلطنته ، الملك العارف العادل والمقاتل من أجل الإيمان)) وعثرت البعثة على نماذج أخرى من الفن السوري خلال العصر الأيوبي داخل جامع صغير ، كما شاهدت ألواحاً جصية مستديرة ومستطيلة الشكل مثبتة في أعلى الجدران الشمالية والجنوبية لهذا الجامع ، وتحمل نقوشاً بالخط الكوفي هي عبارة ((رب العالمين)).

كنيسة سريانية

ومن أهم المكتشفات المثيرة في منطقة التنقيب الثالثة ، جدران كنيسة تخص الطائفة السريانية الأرثوذكسية وقد تم العثور حتى الآن على باب الكنيسة والهيكل وغرفة الكاهن والمذبح ، إن رسم

خريطة دقيقة لهذه الكنيسة قاد إلى عدة اكتشافات هامة ، منها معرفة أن البقع الموجودة على أرضية الكنيسة هي من المصابيح التي تستخدم زيت الزيتون في الإضاءة. وتبين أن هذه الكنيسة كانت تضاء بالإضافة للمصابيح بواسطة ثلاثة شمعدانات يحمل كل منها ستة أو ثمانية مصابيح زجاجية عثر على كسر منها في الأرضية .

ومن المحتمل أن الجزء الغربي من هذه الكنيسة كان مخصصاً للنساء ، والجزء الشرقي للرجال وعثر في أرضية الكنيسة على قطعه مجصصة مزخرفة بإشارة صليب ، كانت قطعة أساسية من المذبح ، الذي تكسر بسبب انهيار السقف خلال العصر الأيوبي .

كما عثر على قطع صغيرة لباب المكان الذي يحفظ فيه القربان المقدس ، وعليه حرفان من اللغة السريانية ، وبقايا ثلاث طبقات أرضية متباينة وأربعة مذابح واضحة موضوعه فوق بعضها بعضاً بشكل جميل يؤكد أن هذه الكنيسة استمرت لفترة تزيد على ٦٠٠ عام بشكل متواصل .

موقع هام على الخابور

لقد ذكر بعض الكتاب العرب في العصرين الأيوبي والعباسي أن تنينير كانت بلدة هامة على الخابور ، في حين ذكر أحد الجغرافيين في كتاباته "تنينير الكبرى وتنينير الصغرى" ، وقد اكتشفت البعثة العديد من التماثيل الصغيرة (عنزة ونعجة) التي يبلغ عمرها ٤٥٠٠ عام ضمن طبقات من الرماد تشكلت نتيجة لوجود مئات الأفران أو التنانير التي كانت تعمل في تنينير منذ ذلك الوقت ، ومن هنا اكتسبت القرية أو البلدة اسمها ، ويعتقد أن كلمة تنينير كانت أصلاً تشير إلى المنطقة الغنية بإنتاج الحبوب على طول وادي الخابور ، وربما كان تل تنينير المركز الرئيسي المأهول بين مواقع التحميص والتخزين ، إذ يصف احد ألواح مكتبة ماري يرجع تاريخه إلى عام ٦٩٠٠ ق.م موقعاً على نهر الخابور يدعى تابيت ، ويحدد أحد الجغرافيين الأكاديميين موقع تابيت في موقع تنينير ، ويظن أن كلمة تابيت تعني شيئاً قريباً من كلمة فرن باللغة الأكادية ، هذه الكلمة التي اقتربت أخيراً من إحدى الكلمات العربية المألوفة في الأردن وفلسطين والتي تعني فرن وهي كلمة تابون ، تماماً مثل تنور وتنانير الشائعة في منطقة الجزيرة السورية .

أما المؤرخون الرومان والبيزنطيون فقد ذكروا في كتاباتهم بلدة هامة على نهر الخابور تسمى تنورين ، ومن وصفها يتضح أنها بلدة تنينير الحالية ، ويعتقد أن السكان العرب قد غيروا اسم الموقع إلى تنينير ليسهل عليهم لفظه وتعني كلمة تنينير أو تنانير وأفران لصنع الخبز.

بلدة هامة على الخابور

حدث في رمضان

دخـــول الفـــتح الإســـلامي مصـــر:

في الأول من رمضان عـام ٢٠هـ الموافـق ١٣ أغسطس ٦٤١م، وفي عهد أمير المؤمنين عمر بـن الخطاب رضي الله عنه دخل الفتح الإسـلامي مصـر على يد القائد البطل عمرو بن العاص رضي الله عنه وأصبحت مصر بلدًا إسلامية.

اســـترداد مدينـــة إنطاكيـــة:

في٥ من رمضان ٦٦٦هـ الموافق ١٩ مـن مـايو ١٢٦٨م: نجح المسلمون بقيادة بيبرس في اسـترداد مدينة إنطاكية من يد الصليبيين بعد أن ظلت أسـيرة في أيديهم ١٧٠ عامًا، وكان لوقوعها صدى كبيـر، فقد كانت ثاني إمارة بعد الرها يؤسسها الصـليبيون في الشرق سنة ٤٩١هـ الموافق ١٠٩٧م.

وفاة سيف الله المسـلول "خالـد بـن الوليـد":

في ١٨ من رمضان ٢١هـ الموافـق ٢٠ مـن أغسطس ٦٤٢م: توفي سيف الله المسلول "خالد بن الوليـد" صـاحب العديـد مـن الفتوحـات والانتصارات على أعتـى إمبراطـوريتين همـا "الفرس" و"الروم"، وقد قضى حياته كلها بين كرٍّ وفرٍّ وجهاد في سبيل إعلاء كلمة الحق ونصـرة الدين.

ولادة "أحمـد بـن طولـون" مؤسـس الدولـة الطولونية:

في ٢٣ من رمضان ٢٢٠هـ الموافق ٢٠ مـن سبتمبر ٨٣٥م: وُلد "أحمد بن طولون" مؤسـس الدولة الطولونية، وُلد ببغـداد، وتلقـى تعليمـه العسكري والديني بها، وبعدما شبَّ لفت الأنظـار إليه بعلمه وشجاعته، ثـم ولـي مصـر سـنة ٢٥٤هـ الموافق ٨٦٨م، ونجح فـي أن يُقـيم دولة قوية شملت مصر والشـام والحجـاز، ولا يزال مسجده الكبير في القاهرة شاهدًا على مـا بلغته دولته من رقي وتقدم.